الفنان عمرو هيبة في أمطار السياب

أقام الفنان المصري عمرو هيبة معرضه الشخصي الجديد في غالري قباب في أبو ظبي بجهد تنظيمي نبيل وقفت خلفه بدأب الفنانة السعودية ريم القحطاني التي سبق لها وأن تعاونت مع ذات الغاليري في إقامة معارض لفنانين مختلفين.

وهنا أريد الإشارة إلى بضعة أمور رافقت المعرض والتجربة ذاتها على حدّ سواء. اقتصر المعرض على أعمال نفّذها الفنان عمرو هيبة بتقنية الحفر الطباعي على معدن الزنك ، واشتمل على الحفر الغائر والمرتفع دون استعمال)الأكواتنت (وهو التأثيرات التي تحدثها مجموعة من الخامات على سطح المعدن كمسحوق الصمغ العربي)القلفونية (أو السكر والملح وآلات الخدش المختلفة. فلقد اكتفى الفنان بالرهان على الإبرة الجافة وحسب، وكان رهانا عززته قدرته الفائقة على الإلمام بعناصر الموضوع وقوّة خطوطه ومعالجاته وإنشائه.

أطلق الفنان على معرضه تسمية)أمطار السياب (في إشارة إلى الشاعر العراقي بدر شاكر السياب أحد رواد قصيدة التفعيلة التي حاولت خلق ذاكرة موازية لذاكرة الشعر العربي التقليدي وكان ذلك في أول مجموعة له أصدرها في مصر عام .1946

في الحقيقة سبق وأن تمّ تناول السياب في أعمال لتشكيليين من بلدان مختلفة في بعديها الإنساني والإبداعي، وربما تكون تجربة الفنان العراقي الكبير علي طالب هي الأقرب والأكثر تأثيرا لانتمائهما إلى ذات المدينة)البصرة (التي دفعتهما لاحقا إلى هجرتها والإقامة في العاصمة بغداد، وبالطبع لابدّ من الإشارة إلى أن تخطيطات الفنان علي طالب كانت جزءا من مشروع)كتاب في جريدة (الي أشرف عليه الشاعر العراقي شوقي عبد الأمير في العدد الذي تناول تجربة السياب.

ولكن الأمر هنا مختلف على نحو كبير، فمن تناول السياب وتجربته لم يكن فنانا عراقيا بل مصريا ربما لم يزر العراق من قبل ولم يتعرّف على دقائقه وتحديدا البيئة التي نضّجت تجربة السياب الإنسان والشاعر والمثقف الفذّ الذي فرض هيمنة النص الشعري الجديد في الساحة الأدبية ليس في العراق وحسب، بل وفي جسم الشعر العربي بعامة.

ولابدّ من التأكيد على أن الفنان كان قريبا على نحو كبير من السياب، بل ولقد تماهى معه في أحايين ليست قليلة، ثمّ وببراعة تامة تمكن من سحب زمن السياب ونصوصه وجعله يتعالق عضويا بما يكابده العراق الآن.

اجتهد الفنان في خلق سيرة بصرية للسياب مستوحيا مفرداته الأثيرة)الشناشيل، الماء، النخل، وأكثر من كلّ لك هو قدرته في جعل الشاعر يواجهه نفسه (فلقد عصف المرض بجسد الشاعر وهو بعد في بداية عقده الثالث ولم يتركه إلا جثة في المستشفى الأميري بدولة الكويت التي آوته وتبنّت علاجه في عام 1964، ولقد حاول السياب مواجهة قدره ونفسه في نصوص خالدة بوسعنا تعقّبها في مجموعتيه)شناشيل ابنة الجلبي (و)انشودة المطر.

وهنا أشعر عميقا أن أكثر ما جعل الفنان عمرو هيبة موفقا في تناوله، هو وجود تجربة موافقة وموازية

لتجربة السياب في الشعر المصري الحديث، وبالطبع أقصد تجربة الشاعر الكبير أمل دنقل الذي جاء هو الآخر من الجنوب وانتهى به الأمر ممزقا على سريره في الغرفة رقم 13بمستشفاه في القاهرة، وللإستزادة يمكن الرجوع إلى كتاب)الجنوبيّ (الذي كتبته زوجة الشاعر عبلة الرويني في سياحة سيروية موجعة.

فنيا لم يجرب الفنان عمرو هيبة في أعماله الأربعين أكثر من لون واحد رغم تنوّع تناولاته واتساع مفرداتها التي تدفعك أحيانا إلى السؤال عن السبب الذي الذي يجعل فنانا متمكنا من عمله لا يميل إلى تجريب لون آخر على السطح مكتفيا بلون واحد، هل هي قلة خبرته في الحفر الطباعي التي تجعل استخدام)كليشة (أخرى أو تحبير الكليشة ذاتها للحصول على لون ثان أمرا شاقا، أم أن هناك سببا يضمره في نفسه، ولماذا لم يسع إلى تجريب حجوم مختلفة وكبيرة على وجه التحديد، فمساحة العمل تخلق سطوة في طريقة التلقّي. أجد شخصيا أن عمرو هيبة كان يقصد ذلك تماما، وأعني أنه أراد للعمل أن يخرج متقشّفا من الرهان على اللون والخامات المساعدة ليتمكن من خلق مناخ دراميّ يليق بالسياب وحياته القلقة القصيرة والفاجعة، وأشعر الآن أنه كان موفّقا تماما في ما ذهب إليه، فالسياب لا يمكن استحضاره بمكمّلات كانت حياته الفعلية تفتقد إليها، كما أن رهانه على الحجوم المتقاربة جاء ليركز ذلك المناخ فينا ولا يعمل على تشتيتنا بصريا. ومن جانب آخر أريد في هذه المساحة أن أتوجّه لفناننا المبدع بضرورة أن ينحاز إلى عمله في العناية بأخراجه على نحو لائق أكثر ، فالعمل يقود بعضه بعضا، وكل شيء على سطحه ينتمي عضويا وجوهريا إلى محيطه.

فلقد رأيت أنه استعمل ورقا غير مخصص للحفر على المعدن، بل للرسم على الزيت والمائيات بأنواعها، كما أن طريقة قطع الورق ذاته بالمقص لم يكن موفّقا إذ أنه يمنحه أطرافا حادة ومحايدة وكان بوسعه القطع يدويا باستعمال لوح مستقيم)المسطرة مثلا(، كذلك بمقدورنا في أحيان أخرى رؤية ماخلّفته أصابعه على حواف العمل رغم اجتهاد الفنانة ريم القحطاني لتفاديها أثناء التأطير. وبالطبع لا يمكننا أن نسحب هذه التفاصيل البسيطة على ما تركته موهبة الفنان فينا من تأثير ايجابيّ عميق جعلنا نعيد اكتشاف السياب ثانية ككائن لم يتعكّز على ألمه، بل السياب إنسانا وشاعرا ورائيا.